فإن قيل ما أنكرتم أن القوم قد عارضوه ولكنه (١) لم ينقل إلينا وغيِّب عنا ذكره ، وكتم الخبر فيه لما اتسع الإسلام وخافوا على أنفسهم ، فانقطع رسمه وامحى أثره . قيل : هذا سؤال ساقط ، والأمر فيه خارج عما جرت به عادات الناس ، خواصهم وعوامهم من نقل الأخبار ، والتحدث بالأمور التى لها شأن ، وبالنفوس تعلق ، ولها فيها وقع . وكيف يجوز ذلك عليهم فى مثل هذا الأمر العظيم الذى قد انزعجت له القلوب وسار ذكره بين الخافقين ! ولو جاز ذلك فى مثل هذا الشأن مع عظيم خطره وجلالة قدره لجاز أن يكون قد خرج فى ذلك العصر نبي آخر ، وأنبياء ذوو عدد ، وتنزلت عليهم كتب من السماء ، وجاءوا بشرائع مخالفة لهذه الشريعة ، وكتم الخبر فيها فلم يظهر . وهذا ما لا يتوهم أن يكون لخروجه من سوم الطباع ومجارى العادات ، فكذلك ما سألونا عنه .

فإن قيل : ما أنكرتم أن المعارضة قد حصلت منهم لبعضه ، وهو ما بلغ مقداره عدد الآى من بعض السور القصار ، نحو ما حكى عن مسيلمة من قوله : «يا ضفدع نقى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ولا الوارد تنفرين» وكما حكى عن بعضهم من قوله : « ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، بين شراسيف وحشى » ن وكما قال آخر منهم : « الفيل ، وما الفيل ، وما أدراك ما الفيل . له مشفر طويل ، وذنب أثيل ، وما ذاك من خلق ربنا بقليل » .

قيل : أما قول مسيلمة فى الضفدع فمعلوم أنه كلام خال من كل فائدة ،

---

(١) علق (أ) على هذه العبارة بهامش جاء فيه : (كذا بالأصل ، وفى العبارة حذف ، تقديره : حاصل ، أو واقع ، ولكنه لم ينقل إلينا . . . إلخ) ، وعبارة الأصل مستقيمة لا تحتاج إلى مثل هذا التقدير ولفظة « ما » فيها نافية وليست موصولة .

لا لفظه صحيح ، ولا معناه مستقيم ، ولا فيه شيء من الشرائط الثلاث التى هى أركان البلاغة ، وإنما تكلف هذا الكلام الغث لأجل مافيه من السجع . والساجع عادته أن يجعل المعانى تابعة لسجعه ، ولا يبالى بما يتكلم به إذا استوت أساجيعه واطردت .

ولخلو هذا الكلام من كل نوع من الفوائد قال أبو بكر رضى الله عنه حين طرقت[1] سمعه : أشهد أن هذا الكلام لم يخرج من بال . وأخبرنى ابن الفارسى محمد بن القاسم بن الحكم قال : أخبرنى أبى قال أخبرنى إبراهيم بن هانئ قال : أخبرنى يحيي بن بكير قال : أخبرنى الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال عن سعيد بن نشيط. قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص إلى البحرين ، فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرو ثَمَّ . قال عمرو : فأقبلت حتى مررت على مسيلمة فأعطانى الأمان ثم قال : إن محمدًا أرسل فى جسيم الأمور وأرسلت فى المحقرات . فقلت : أعرض على ما تقول . فقال : « ياضفدع نقى فإنك نعم ما تنقين . لا واردًا تنفرين ، ولا ماءً تكدرين ، يا وَبْرُ يا وَبْرُ ،[2] يدان وصدر ، وسائرك حضر[3] نفر » . ثم أتى أناس يختصمون إليه فى نخل قطعها[4] بعضهم لبعض فتسَجَّى بقطيفة ثم كشف رأسه فقال : « والليل الأدهم ، والذئب الأسحم ، ما جاءَ بنو أبى مسلم من مَحْرَمْ » ثم تسجَّى الثانية فقال : « والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما حرمته رطبًا إلا كحرمته يابس ، قوموا فلا أرى عليكم فيما صنعتم شيئًا » . قال : قال عمرو :أما والله إنك تعلم وإنا

---

(١) فى (ا) : طرق .
(٢) الوبر دويبة كالسنور.
(٣) ذكر (ا) أن ابن كثير أورد هذه القصة وفيها : وسيرك حفر ونقر ، وفى (ب) : وساترك حقر نقر .
(٤) فى الأصل : أقطعها .

لنعلم أنك من الكاذبين . فتوعدني .

قلت : صدق عمرو . هل يخالج أحدًا شك في ضلالة من هذا سبيله ، وسقوط من هذا برهانه ودليله ؟ ! . وأي بلاغة في هذا الكلام ؟ ، وأي معنى تحته ، وأي حكمة فيه حتى يتوهم أن فيه معارضة للقرآن ، أو مباراة له على وجه من الوجوه ؟ . ولكن البائس أعلم بنفسه حين يقول : أُرسلت في المحقرات ، ولا يراد [1] أحقر مما جاء به وأقل . ولعل بعض ما جاء به أبو الينبعي [2] ، وأبو العَبْر ، والطرميُّ وأضرابهم من السخافات أشف منه وأخف على السمع . وما أشبه الأمر في هذا بما حكى لنا عن أبي عمرو بن العلاء : حدثني محمد ابن الحسين بن عاصم قال : حدثني محمد بن الصباح المازني قال : حدثني عبد الله بن الهيثم حدثنا الأصمعي قال : أنشد رجل أبا عمرو بن العلاء شعرًا رديئًا فقال : هذا شبه شعر فلان :

حـــدارجـــا حدارجا   سبعين فرخـــا دارجـــا

قال : وأنشد رجل آخر شعرًا رديئًا فهًّا [3] فقال : هذا يشبه شعر بشار [4] :

حبـــابـــة ربـــة البيت   تصب الخل في الـــزيت
لهـــا سبع دجـــاجـــات   وديك حسن الصـــوت

وأما قول الآخر : الفيل وما الفيل وما أدراك ما الفيل ، وقول صاحب [5] ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى . . . فإن كل واحد من هذين الكلامين مع قصور آيه [6] ، وقصر معانيه خال من أوصاف المعارضات وشروطها ، وإنما

---

(١) في (ب) : ولايرى . (٢) وهو رجل هازل خليع .
(٣) في الأصل فيها وقد قرأها (ا) تفيها وصوبناها فها ومعناها عيياً .
(٤) البيتان في الأغاني ط دار الكتب ٣/١٦٣ ورواية البيت الأول : ربابة ربة البيت .
(٥) قرأها (ا) « صاحبة » والأصل أصح .
(٦) الأصل واضح كما أثبتناه ولكن (ا) قرأها « رأيه » .

هو استراق واقتطاع من عرض كلام القرآن واحتذاء لبعض أمثلة نظومه ، وكلا لن يبلغوا شأوه أو يصيبوا فى شيء من ذلك حذوه

وسبيل من عارض صاحبه فى خطبة أو شعر أن ينشئ له كلامًا جديدًا ويحدث له معنى بديعًا ، فيجاريه فى لفظه ويباريه فى معناه ليوازن بين الكلامين فيحكم بالفلج لمن أبر[١] منهما على صاحبه ، وليس بأن يتحيف من أطراف كلام خصمه فينسف منه ثم يبدل كلمة مكان كلمة فيصل بعضه ببعض وصل ترقيع وتلفيق ، ثم يزعم أنه قد واقفه موقف المعارضين وإنما المعارضة على أحد وجوه :

منها أن يتبارى الرجلان فى شعر أو خطبة أو محاورة فيأتى كل واحد منهما بأمر محدث من وصف ماتنازعاه ، وبيان ماتباريا فيه يوازى بذلك صاحبه أو يزيد عليه ، فيفصل الحكم عند ذلك بينهما بما يوجبه النظر من التساوى والتفاضل ، نحو ما تنازعه امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة من وصف الفرس فى قصيدتيهما المشهورتين ، فافتتح امرؤ القيس قصيدته بقوله[٢] :

خَلِيلَىَّ مُرَّا بِى على أُمِّ جُنْدبِ

فلما صَارَ إلى ذكر الفرس وسرعة ركضه قال :

فللزجر أُلهوبٌ وللسَّاقِ دِرةٌ ... وللسَّوطِ منه وقْعُ أَهوجَ مُنْعِبِ[٣]

---

(١) فى (ب) : أربى .

(٢) راجع القصة والأبيات فى شرح ديوان أمرئ القيس لأبى بكر عاصم بن أيوب ط هندية سنة ١٣٢٤ هـ ص ٧٢ والموشح للمرزبانى ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ وبروايات مختلفة .

(٣) هكذا فى الأصل ويروى وقع أخرج مهذب وكذا فى (ا) : والأخرج الظليم وهو ذكر النعام ، ومهذب مسرع فى عدوه . وفى الديوان البيت :

فللساق ألهوب وللسوط درة ... وللزجر منه وقع أهوج منعب

والأهوج الأحمق ، والهوجاء السريعة ، والمنعب الذى يستعين بنعقه .

وابتدأ علقمة قصيدته بقوله (١) :

ذهبْتِ مِنَ الهجْرانِ فى غيرِ مَذْهَبِ

فلما صار إلى ذكر الفرس وركضه قال :

فعَفَّى على آثارهِنَّ بحاصِبٍ وغيبةِ شؤبوبٍ من الشَّد ملهبِ
فأَدْرَكهُنَّ ثانيًا من عنانه يمرُّ كمرِّ الرائح المتحَلِّبِ (٢)

وكانا قد حكَّما بينهما امرأة امرئ القيس ، فقالت لزوجها : علقمةُ أشعر منك ، فقال : وكيف ذلك ؟ قالت :لأَنه وصف الفرس بأَنه أدرك (٣) الطريدة من غير أن يجهده أو يكده ، وأَنت مريت فرسك بالزجر وشدة التحريك والضرب ، فغضب عند ذلك وطلقها .

ونحو هذا معارضة الحارث بن التوأم اليشكرى إياه فى إجازة أَبيات : أَخبرنى محمد بن الحسين بن عاصم قال أَخبرنى محمد بن الصباح المازنى قال: أَخبرنى عبيد الله بن محمد الحنفى قال أَخبرنى محمد بن سلام عن أَبى عبيدة عن أَبى عمرو بن العلاء قال : كان امرؤ القيس ينازع كل من قيل إنه يقول شعرًا ، فنازع الحارث بن التوءم ، فقال امرؤ القيس (٤) :

أَحارِ ترى بُرَيْقًا هَبَّ وهنًا

---

(١) القصيدة فى ديوان علقمة ضمن مجموعة دواوين خمسة ص ١٣٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ١٣٤ ورواية الشطر : يمر كمر رائح متحلب .

(٣) العبارة غير واضحة فى الأصل وتصحيحها من « ب » وهى فى المصدر واضحة (راجع مثلا الموشح ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠) . فقالت لامرئ القيس : هو أشعر منك، رأيتك ضربت فرسك بسوطك وحركته بساقك ورأيته أدرك الصيد ثانياً من عنانه .

(٤) راجع شرح ديوان امرئ القيس ص ١٦٦ وما بعدها والعقد الثمين ١٣٢ ، شعراء النصرانية ١ / ١٠ — ١١ والعمدة ١ / ١٣٥ ط سنة ١٩٢٥ هـ ، واسم الشاعر فى العمدة الحارث ابن قتادة وكنيته التوءم اليشكرى .

فقال الحارث :

كنار مَجُوسَ تَستِعرُ استِعَارا

فقال امرؤ القيس :

أَرِقْتُ لهُ ونام أَبُو شُريحٍ

فقال الحارث :

إذا ما قُلْتُ قد هَدأَ اسْتَطَارَا

فقال امرؤ القيس :

فمرّ بجانبِ العبلات منه[1]

فقال الحارث :

وبات يحتفر الأَكم احتفارا[2]

فقال امرؤ القيس :

فلم يترك ببطن السِّى ظبيًا[3]

فقال الحارث :

ولم يترك بعرصتها حمارا[4]

فقال امرؤ القيس :

كأَنَّ هَزيزَهُ بوَراءِ غَيْب

قال الحارث :

عشارٌ وُلَّهٌ لاقت عشارا

---

(١) هذا البيت غير موجود بالديوان .

(٢) هكذا الشطر فى الأصل وهو غير واضح ومختل .

(٣) رواية الديوان : فلم يترك بذات السر وهو موضع .

(٤) رواية الديوان : ولم يترك بجلهتها ، وكذا فى العمدة ١ / ١٣٥ .

فقال امرؤ القيس :

فلما أَن علا شرجى أُضاخٍ[١]

قال الحارث :

وَهَتْ أَعجاز رِيِّقه فخارا

قال امرؤ القيس :

فلم تر مثلنا ملكًا همامًا[٢]

قال الحارث :

ولم تر مثل هذا الجار جارا

قال : فآلى امرؤ القيس أَلا يناقض بعده شاعرًا . قال محمد بن سلام فى غير هذه الرواية : فلما رآه امرؤ القيس قد ماتنه ، ولم يكن فى ذلك الدهر شاعر يماتنه آلى أَلا ينازع الشعر بعده أَحدًا .

قلت : هذه مباراة عجيبة ، ومعارضة تامة مستوفاة فصلاً فصلاً ، ومصراعًا مصراعًا ، وللحارث فيها ما ليس لامرئ القيس لأَن المبتدئ ، متمكن من الاختيار موسع عليه[٣] الطرق يسلك أَيها شاءَ ، والمجيز مقصور القيد ممنوع من التصرف إلا فى الجهة التى هو بإِزائها فلذلك قد أَبر عليه الحرث من التصرف إلا فى الجهة التى هو بإِزائها فلذلك قد أَبر عليه الحارث لماجاءَ[٤] من حسن التشبيه والتمثيل الذى خلا منه كلام امرئ القيس ، ولأَجل ذلك آلى امرؤ القيس أَلا يماتن شاعراً بعده .

---

(١) رواية الديوان : فلما أن دنا لقفا أضاخ ، وشعراء النصرانية : كنفى أضاخ ١ /١١ والعمدة ١/١٣٥ وأضاخ موضع ، وفى الأصل أضاح وكذلك فى (ا) ، ولم نعثر عليها .

(٢) هذا السطر والذى يليه ليسا فى الديوان .

(٣) زاد (ا) هنا (فى) فأصبحت العباره موسع عليه فى الطرق .

(٤) زاد (ا) (به) والعباره بدونها مستقيمة .

وقد رُوى لنا أَن الوليد بن عبد الملك وأَخاه مسلمة تنازعا ذكر الليل وطوله ، ففضل الوليد أَبيات النابغة فى وصف الليل ، وفضل مسلمة أَبيات امرئ القيس ؛ فحكَّما الشعبى بينهما ، فقال الشعبى : تُنشدُ الأَبيات وأَسمع ، فأُنشد للنابغة (١) :

كلينى لِهمٍّ يا أُميمة ناصِبِ ... وليلٍ أُقاسِيه بطئ الكواكِبِ
تطاوَلَ حتى قلت ليس بمُنْقَضٍ ... وليْسَ الذى يرعى النجوم بآيبِ
بصَدْرٍ أَراح الليل عازبَ هَمِّه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانبِ

ثم أُنشد لامرئ القيس :

وليل كموج البحر أَرْخى سُدُوله ... علىَّ بأَنواعِ الهمومِ ليبتَلِى
فقلتُ لهُ لما تمطَّى بصُلْبِه ... وأَردف أَعجازًا وناءَ بِكلكلِ
أَلاَ أَيُّها الليلُ الطويلُ أَلا انجلى ... بصُبْحٍ وما الإِصباحُ مِنْكَ بأَمْثَلِ
فيالك من ليل كأَن نجومَهُ ... بكُلِّ مُغار الفتل شُدَّتْ بيَذْبُلِ

قال فركض الوليد برجله ، فقال الشعبى : بانت القضية .

قلت : افتتاح النابغة قصيدته بقوله (٢) :

كِلينى لهمٍّ يا أُميمة ناصِبِ

متناه فى الحسن ، بليغ فى وصف ما شكاه ، من هَمِّهِ وطول ليله . ويقال إنه لم يبتدئ شاعر قصيدة بأَحسن من هذا الكلام . وقوله :

وصَدْرٍ أَراح الليلُ عازبَ هَمِّه

---

(١) الأَبيات من القصيده المشهورة للنابغة التى يعتذر فيها للنعمان ، راجع الديوان ط مصر ص ٤٢ ، والعقد الثمين ٢ .

(٢) ديوان امرئ القيس ٣٦ ، والعقد الثمين ١٤٨ .

مستعارٌ من إراحة الراعى الإبل إلى مباتها ، وهو كلام مطبوع سهل يجمع البلاغة والعذوبة ؛ إلا أن فى أبيات امرئ القيس من ثقافة الصنعة وحسن التشبيه وإبداع المعانى ما ليس فى أبيات النابغة ، إذ جعل لليل صلبًا وأعجازًا وكلكلا ، وشبه تراكم ظلمة الليل بموج البحر فى تلاطمه عند ركوب بعضه بعضاً حالا على حال ، وجعل النجوم كأنها مشدودة بحبال وثيقة فهى راكدة لا تزول ولا تبرح ، ثم لم يقتصر على ما وصف من هذه الأمور حتى عللها بالبلوى ونبه فيها على المعنى ، وجعل يتمنى تصرم الليل بعود الصبح لما يرجو فيه من الروح ، ثم ارتَجَعَ ما أعطى واستدرك ما كان قدمه وأمضاه ، فزعم أن البلوى أعظم من أن يكون لها فى شىء من الأوقات كشف وانجلاء ، والمحنة فيها أعلظ من أن يوجد لدائها فى حال من الأحوال دواء وشفاء ، وهذه الأمور لا يتفق مجموعها فى اليسير من الكلام إلا لمثله من المبرزين فى الشعر الحائزين فيه قصب السبق ، ولأجل ذلك كان يركض الوليد برجله إذ لم يتمالك أن يعترف له بفضله .

فبمثل هذه الأمور تعتبر معانى المعارضة فيقع بها الفصل بين الكلامين من تقديم لأحدهما أو تأخير أو تسوية بينهما[١] .

وقد يتنازع الشاعران معنى واحدًا فيرتقى أحدهما إلى ذروته ويقصر شأو الآخر عن مساواته فى درجته ، كالأعشى والأخطل حين انتزعا[٢]

---

(١) فى مثل هذا التحليل يبدو الذوق الفنى عند الخطابى وتتضح الصلة بين دراسات أسلوب القرآن ودراسات النقد الأدبى ، ويلاحظ أن الباقلانى قد تناول أيضاً معلقة امرئ القيس بالتحليل فى معرض الاحتجاج لبلاغة القرآن .

(٢) فى (ا) ، « ب » اقترعا ، وقراءة الأصل أشبه بالسياق .

في وصف الخمر على معنى واحد فكان لأحدهما العلو ، وكان للآخر السفل.

أخبرني أبو رجاء الغنوى قال : أخبرني أبي قال : أخبرني عبد الله بن أبي سعد قال : حدثني أبو غسان مالك بن غسان المسمعى قال : حدثني هشام ابن أدهم المازنى ـ وكان علامة ـ قال : دخل الشعبي على الأخطل فوجده ثملاً وحوله لخَالِخُ(١) ورياحين ، فقال : ياشعبي فعل الأخطل وذكر أمهات الشعراء ، فقال الشعبي : بماذا يا أبا مالك ؟ قال : بقوله :

وتظَلُّ تُنْصِفُنَا بهــا قَرَوِيــةٌ إبريقها بِرِقَــاعِــه مَلْثُومُ (٢)
فإذا تعاورت الأكفُّ زجــاجَها نفحتْ فَنال رياحها المزكومُ

فقال الشعبي : أشعر منك الذى يقول (٣) :

وأدكن عاتقٍ جحــلٍ سِبَحْلٍ(٤) صَبَحْت براحِــه شَرْبًا كِراما
من اللائى حُمِلْنَ على الروايا كريح المسك تَسْتَلُّ الزكامَا

فقال له الأخطل : من يقول هذا ياشعبي؟ . قال : الأعشى . قال : قُدُّوس قدوس ، فعل الأعشى ، وذكر أمهات الشعراءِ . فتأمل أين منزلة أحدهما من الآخر ، لم يزد الأخطل حين احتشد وافتخر على أن جعل رائحتها لذكائها تنفذ حتى تخلص إلى الرأس فينالها المزكوم ، وجعلها الأعشى لحدتها وفرط ذكائها مستلَّة للزكام طاردة له ، قد طَبَّت لدائه وتأَتَّت لبرئه وشفائه .

---

(١) اللخالخ نوع من الطيب .

(٢) راجع شعر الأخطل ط صالحانى بيروت سنة ١٩٠٥ م ص ٨٥ ورواية البيت (برقاعها ملثوم) .

(٣) ديوان الأعشى ط R, Geyer سنة ١٩٢٨ ص ١٣٥

(٤) السبحل الضخم .

وأعجب من هذا فى المعارضات ، وأبلغ منه فى مذاهب المقابلات والمناقضات بناء الشيء وهدمه ، وتشييده ثم وضعه ونقضه ، كقول حسان بن ثابت . أخبرنى أبو رجاء قال : حدثنى أبى قال : حدثنى عمر بن شبة قال : حدثنى هارون بن عبد الله الزبيرى قال : حدثنى يوسف بن عبد الله الماجشون عن أبيه قال : قال حسان : أتيت جبلة بن الأيهم الغسانى وقد مدحته فقال لى : يا أبا الوليد إن الخمر قد شغفتنى فاذممها لعلى أرفضها فقلت :

ولولا ثلاثٌ هن فى الكأس لم يكن لها ثمن من شاربٍ حين يشربُ
لها نزقٌ مثل الجنـون ومصـرعٌ دنِيٌّ وأن العقل ينأى ويَعـزُبُ

فقال : أفسدتها فحسنها ، فقلت :

ولولا ثلاثٌ هن فى الكأس أصبحتْ كأنفسِ مال يسـتفاد ويطلبُ
أمانيُّها والنفس يظهر طيبُهـا على حزنها والهم يُسلى فيذهبُ

فقال : لا جرم . والله لا تركتها أبدًا .

قلت : وها هنا وجه آخر يدخل فى هذا الباب ، وليس بمحض المعارضة ، ولكنه نوع من الموازنة بين المعارضة والمقابلة ، وهو أن يجرى أحد الشاعرين فى أسلوب من أساليب الكلام وواد من أوديته ، فيكون أحدهما أبلغ فى وصف ما كان من باله من الآخر فى نعت ما هو بإزائه ، وذلك مثل أن يُتأمل شعر أبى دؤاد الإيادى والنابغة الجعدى فى صفة الخيل ، وشعر الأعشى والأخطل فى نعت الخمر ، وشعر الشماخ فى وصف الحُمُر ، وشعر ذى الرمة فى صفة الأطلال والدمن ، ونعوت البرارى والقفار ، فإن كل واحد منهم وصاف لما يضاف إليه من أنواع الأمور ، فيقال : فلان أشعر فى بابه

ومذهبه من فلان فى طريقته التى يذهبها فى شعره ، وذلك بأَن تتأَمل نمط كلامه فى نوع ما يعنى به ويصفه ، وتنظرُ فيما يقع تحته من النعوت والأَوصاف ، فإذا وجدت أَحدهما أَشد تقصياً لها ، وأَحسن تخلصاً إلى دقائق معانيها ، وأَكثر إصابة فيها حكمت لقوله بالسبق ، وقضيت له بالتبريز على صاحبه ، ولم تبال باختلاف مقاصدهم وتباين الطرق بهم فيها .

قلت : وإذا أَنت وقفت على شروط المعارضات ورسومها ، وتبينت مذاهبها ووجوهها علمت أَن القوم لم يصنعوا فى معارضة القرآن شيئاً ، ولم يأتوا من أَحكامها بشىء بتة . والأَمر فى ذلك بيِّن واضح لايخفى على ذى مُسكة ذكى والحمد لله .

فيقال الآن لصاحب الفيل : يا فائل الرأْى (١) ، أَين ما شرطناه من حدود البلاغة فيما جئت به من الكلام ، وأَين ما وصفناه من رسوم المعارضات فيما هذيت من جهلك وضلالتك ، افتتحت قولك بـ : « الفيل ما الفيل وما أَدراك ما الفيل . . » فهولت وروعت ، وصعدت وصوبت ثم أَخلفت ما وعدت وأَخدجت ما ولَّدت حين انقطعت ، وعلى ذكر الذَّنَب والمشفر اقتصرت ، ولو كنت تعرف شيئاً من قوانين الكلام وأَوضاع المنطق ورسومه لم تحرِّف القول عن جهته ، ولم تضعه فى غير موضعه . أَما علمت يا عاجز أَن مثل هذه الفاتحة إنما تُجعل مقدمة لأَمر عظيم الشأْن فائت الوصف متناهى الغاية فى معناه ، كقول الله تعالى : (الحاقَّة ، ما الحاقَّة وما أَدراك ما الحاقَّة) و (القارعةُ ما القارعة وما أَدراكَ ما القارعة) فذكر يوم القيامة وأَتبعها من ذكر أَوصافها وعظيم أَهوالها ما لاق بالمقدمة التى أَسلفها وصدَّر

(١) كذا فى (ب) وفى (ا) والطبعة الأولى إلى أى .

الخطبة بها فقال : ﴿ يوم يكونُ الناسُ كالفَراش المبثوث وتكونُ الجبالُ كالعِهن المنفوش . . . ﴾ إلى آخر السورة . وأنت علقت هذا القول على دابة يدركها البصر فى مدى[١] اللحظة ويحيط بمعانيها العلم فى اليسير من مدة الفكر ، ثم اقتصرت من عظيم ما فيه[٢] من العجب على ذكر المشفر والذنب . فما أُشَبِّهُ قولك هذا إلا بما أنشدنيه بعض شيوخنا لبعض نظرائك :

وإنى وإنى ثم إنى وإننى إذا انقطعت نعلى جعلت لها شسعا

أىّ صغير ما أتيت به فى عجز كلامك[٣] من عظيم ما أصميته فى صدره ويسير ما رضيت به فى آخره من كثير ما أنميته فى أوله ، وإذ قد دلك[٤] فيالةُ رأيك وسوءُ اختيارك على معارضة القرآن العظيم بذكر الفيل وأوصافه ، فهلا أتيت منها بما هو أشمف قيلاً[٥] وأشفى وأجمع لخواص نعوته وأوفى فتذكر ما أُعطِيته هذه البهيمة العجماء من الذهن والفطنة التى بها تفهم عن سائسها ما يومئ به إليها من تدبيره ، وهلا تعجبت وعجبت من ذلك من حسن مواتاتها وطاعتها له إذا أغراها ، وقرب ارتداعها إذا زجرها ونهاها . وهلاقرنت إلى ذكر مشفرها ذكر نابيها اللذين بهما تصول ، وبسنانهما تطعن وتجرح . !![٦] وكيف أغفلت أمر أُذنيها العريضتين اللتين تلحفهما وجهها وتذب بتحريكهما البق والذباب عن[٧] صماخيها وعينيها ، وبهما تروّحُ على نواحى رأسها ،

---

(١) فى (ا) سر.

(٢) هكذا فى الأصل ، وقد نقلها (ا) فيها ، ولعله قصد بذلك عود الضمير على دابة . ويمكن على الأصل أن يعود الضمير على الفيل وهو محور الكلام .

(٣) فى الأصل « كلامه » والسياق يتطلب ما أثبتناه .

(٤) فى الأصل ذلك – وقرأها (ا) كما أثبتناه ، والسياق يقتضى لفظاً بمعنى حملك .

(٥) فى الأصل قليلا ، وقرأها (ا) غليلا .

(٦) سقطت هذه الكلمة فى (ا) .

(٧) هكذا فى الأصل وقد قرأها (ا) على ، والأصل أصح .

وكيف لم تفطن لموضع التدبير من قصر رقبتها واندماج عنقها ، فإنها لو طالت لم تُقِلّ رأسها ، ولأَوهنها ثقل حمله . فإذ قد منعت امتداد العنق فقد عوضت به انسدال المشفر ، لتتناول[١] به من وجه الأَرض حاجتها من القوت والعلف ، وتَدْلُوَ به شربها من الماء ، وتملأ كالسقَّاءِ فتنضح به أَعضاءَها إذا شاءت ، ثم قد منعت البروك بأَن لم تجعل لها مفاصل لم تقدر على النهوض ، إذ ليس لها عنق تتطاول بها[٢] كالبعير الذى يهْنعُ بعنقه وينبعث ويثور ، فيما يشبه هذه الأُمور من نعوت خلقها وعجائب تركيبها . ويقال له أَرأَيت لو عارضك فى قولك سفيه مثلك بالبعوض الذى هو خصم فيلك وَجَنَفُه[٣] فى مضادة الطباع ، وقد حكاه فى مناظر الخلقة من شخوص الفودين وانخراط الخدين . وانسدال المشفر والصول به . فقال : « البعوض وما البعوض وما أَدراك ما البعوض ، له مشفر عضوض ، فى الدماء يخوض ، فهو للفيل عروض ! » هل يكون سبيله فيما تعاطاه من السخف إلا سبيلك فيما أَتيته من الجهل ؟ . فإن قيل إن البعوض ليس بعروض الفيل لبعد ما بينهما من التفاوت فى الحجم والجثة وما بينهما[٤] من الضعف والقوة قيل : مدار الحكم فى باب التشبيه والتمثيل على المعانى دون الأَعيان والأَجسام ، والبعوض حيوان من أَوجه كالفيل ، يكسب القوت ويتوقى المهالك ، ولذلك صار يتوارى نهارًا ويبرز ليلا ، وقد أَشبه خلقه الفيل برأسه وبخرطومه ، وبسائر ما ذكرناه من أَمره ، ثم قد زاد عليه بجناحين ، فصار موضع نقص الجسم والجثة مجبورًا بهما ، فهما متساويان فى المعانى التى تجمعهما غير مفترقين فيهما .

---

(١) فى (ا) تتناول .

(٢) فى « ب » (فتنوء) زيادة بعد بها .

(٣) غير واضحة فى الأصل .

(٤) فى (ت) وتباينهما .

وأما قول الآخر وما جاء به من نعت للحبلى ، فإن أول ما غلط به هذا الجاهل أنه وضع كلمة الانتقام فى موضع كلمة الإنعام حين قال : « ألم تر إلى [١] ربك كيف فعل بالحبلى » ، وإنما تستعمل هذه اللفظة فى العقوبات ونحوها كقوله : ﴿ ألم تر كيف فعل رَبُّكَ بأَصحاب الفيل ﴾ ، وكقوله سبحانه : ﴿ ما يفعلُ الله بعذابكم ﴾ وكقوله : ﴿ وَتبَيَّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأَمثال ﴾ وكقول القائل : فعل الله بفلان وفعل ، إذا دعا عليه ، وإنما وجهُ الكلام مما رامه من المعنى أن يقول : ألم تر إلى ربك كيف لطف بالحبلى ، وكيف أنعم عليها أو نحواً من هذا الكلام الذى يجرى مجرى الامتنان والإنعام . وأما قوله : أخرج منها نسمة تسعى من بين شراسيف وحشى ، فإنما تعاطى استراقًا من قول الله تعالى : ﴿ خُلِق [٢] من ماء دافق يخرج من بين الصُّلْب والترائب ﴾ ، وهذا فى أول تارات الخلقة التى ذكرها الله سبحانه عز وجل ؛ ثم ذكر فى آية أخرى عدد انتقالاته فى الرحم من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى لحم ، وإنشاء [٣] خلق بعد ذلك آخر ، وهو اجتماع الصورة ونفخ الروح فيها ، فدل بها على عظيم قدرته ولطيف حكمته وسعة رحمته ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وإنما تتصرف به هذه الأَحوال بعد الانتقال إلى الرحم ، وبين الرحم والشراسيف مسافة وحجب . قال أَصحاب التشريح : الرحم موضوعة بين المثانة والمعى المستقيم ، فلم يدر هذا البائس ما يقول حين جعل الولد بعد الحبل خارجًا من بين الشراسيف والحشى تمثلاً بقوله جل وعز : ﴿ يخرج من بين الصُّلب والترائب ﴾ فغلط فى الوصف .

---

(١) هذه قراءة الأصل وقد جعلها (ا) : ألم تر كيف فعل ربك .

(٢) فى الأصل : « خلق الإنسان » وهو خطأ فى المخطوط وصحة الآية ما أثبتناه .

(٣) على قراءة الأصل ، وحرفها (ا) إلى : وأنشىء خلقاً .

وأخطأ فى المعنى كما أَبطل فى الدعوى .

وتلك سبيل مقالات المتكلفين وعاقبة دعاوى المبطلين .

قلت[١] فى إعجاز القرآن وجهًا[٢] آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس ، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أُخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ؛ فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأْيهم الأَول ، وأَن يركنوا إلى مسالمته ، ويدخلوا فى دينه ، وصارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم إيمانًا .

خرج عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعمد لقتله ، فسار إلى دار أُخته وهى تقرأ سورة طه . فلما وقع فى سمعه لم يلبث أَن آمن . وبعث الملأُ من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليواقفوه[٣] على أُمور أَرسلوه بها ، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات من حم السجدة ، فلما أَقبل عتبة وأَبصره الملأَ من قريش

---

(١) يلخص السيوطى فى الإتقان ٢ ص ٢٠٥ رأى الخطابى هنا فى هذا الوجه من الإعجاز ويلخصه كذلك صاحب مفتاح السعادة ط حيدر آباد ٢ /٣٦١ .

(٢) أثبتها (ا) وجه .

(٣) أثبتها (ا) « ليوافقه » وليس هذا مراداً هنا .

قالوا : أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فى الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا به وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها ، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن . وقد رُوى عن بعضهم أنه قال : فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن .

ولما سمعته الجن لم تتمالك أن قالت : ﴿ إنَّا سَمعنا قُرآنًا عَجَبًا يَهْدِي إلى الرُّشْد فآمَنَّا به ﴾ (١) . ومصداق ما وصفناه فى أمر القرآن فى قوله تعالى : ﴿ لو أنزلْنا هذا القرآن على جَبَل لرأيتَه خاشعًا متصدِّعًا مِن خشيةِ الله ﴾ (٢) ، وفى قوله : ﴿ الله نزَّلَ أحْسَن الحديثِ كِتابًا متشابهًا مَثانِيَ تقْشعِرُّ منه جلودُ الذى يَخْشوْنَ ربَّهم ثُمَّ تلينُ جلودهُم وَقلوبُهم إلى ذِكرِ الله ﴾ (٣) . وقال سبحانه : ﴿ أوَلم يَكْفِهم أنَّا أنزلنا عليك الكِتابَ يُتلَى عليهم ﴾ (٤) . وقال سبحانه : ﴿ وَإذا تُلِيتْ عليهم آياتُه زادتْهم إيمانًا ﴾ (٥) . وقال سبحانه : ﴿ وإذا سَمِعوا ما أُنزل إلى الرَّسولِ تَرَى أعْيُنهم تفيضُ مِن الدَّمع مِمَّا عَرَفُوا من الحقِّ ﴾ (٦) فى آى ذوات عدد منه ، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد ، وهو من عظيم آياته ، ودلائل معجزاته .

والحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قَيِّمًا ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياءِ والمرسلين ، غيظ الكافرين ، وحتف الملحدين ، المبعوث بدين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وحسبنا الله ونعم الوكيل

---

(١) [الجن ٧٢/ ٢٠١] .
(٢) [الحشر ٥٩/ ٢١] .
(٣) [الزمر ٣٩/ ٢٣] .
(٤) [العنكبوت ٢٩/ ٥١] .
(٥) [الأنفال ٨/ ٢] .
(٦) [المائدة ٥/ ٨٣] .

تم الكتاب بحمد الله وعونه

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين

أَوائل شوَّال عام ستة وأَلف .

عرفنا الله خيره ووقانا شره

وجاءَ فى آخر النسخة :

« بلغت المقابلة هنا من الأَصل المنتسخ منه »